عثمان غازي

فترة الحكم: ١٢٩٩–١٣٢٤

السلطان العثماني الأول

الألقاب والأسماء الشعرية: غازي، وفخر الدين، "عُثْمَانْجِك" أي العثماني الصغير (صيغة التصغير في اللغة التركية تعبر عن التحبيب والعاطفة)، و"كَارَا" [كانت بسالته ولون شعره وذقنه وحاجباه الأسودان الداكنان أسبابا لتسميته في شبابه باسم "كَارَا" عثمان (عثمان الأسود)]

اسم الأب: أَرْطُغْرُل غازي

اسم الأم: هَايْمَهْ آنَا

محل وتاريخ الميلاد: سُغوت، في شمال غرب الأناضول، ١٢٥٨

العمر عند تولي الإمارة: ٤١ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: النقرس، ١٣٢٤

مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي في سُغوتْ، ودفن في بورصا ١٣٢٤

أبناؤه: أورخان، وجُوبان، ومَلِك، وحميد، وبَازَارْلُو

بناته: فاطمة، ومَلك

صورة قديمة لمقبرة عثمان غازي أُخذت بعد تجديدها على يد السلطان عبد الحميد الثاني.

يعد عثمان غازي، الذي سميت الدولة العثمانية باسمه، السلطان الذي ترك وراءه أقل عدد من السجلات التاريخية، حيث لم يتوقع أحد أن إمارته غير المهمة قد يتمخض عنها في النهاية دولة بهذه العظمة. فجزء كبير من المصادر التركية عنه ليست معاصرة له، ولكن تم تشكيلها من أجزاء من التاريخ الشفهي جمعت بعد ذلك. تقول الروايات التقليدية إن علاء الدين "كَيْكُوبَاتْ"، سلطان الأتراك السلاجقة بالأناضول،[1] منح قبيلة "قَايي" المنحدرة من أصول الأتراك الأوغُوز منطقتي كَارَاجَادَاغْ وسُغُوت، لتكونا موطنا أصليا لهم، كما منحهم منطقة دُومَانِيج لرعي الماشية، وذلك مكافأة لأَرْطُغْرُلْ غازي، زعيم القبيلة ووالد عثمان غازي، ورجاله على شجاعتهم في أرض المعركة.

وأقام عثمان غازي إمارته الحدودية في سغوت في شمال غرب الأناضول بالقرب من بيزنطة. وكانت هذه أقرب إمارة حدودية لبيزنطة مما أعطاها فرصة عظيمة للتوسع الإقليمي السريع. ومن بين الإنجازات العظيمة الأخرى لعثمان غازي هو أنه رحب بأعداد كبيرة من اللاجئين التركمانيين الذين عرفوا باسم "غَرِيبْلَر" (الغرباء) الذين سُلبوا موطنهم. وقام بتدريب هؤلاء الغرباء التركمان الذين تدفقوا إلى منطقة حكمه ووحَّدهم تحت راية واحدة.

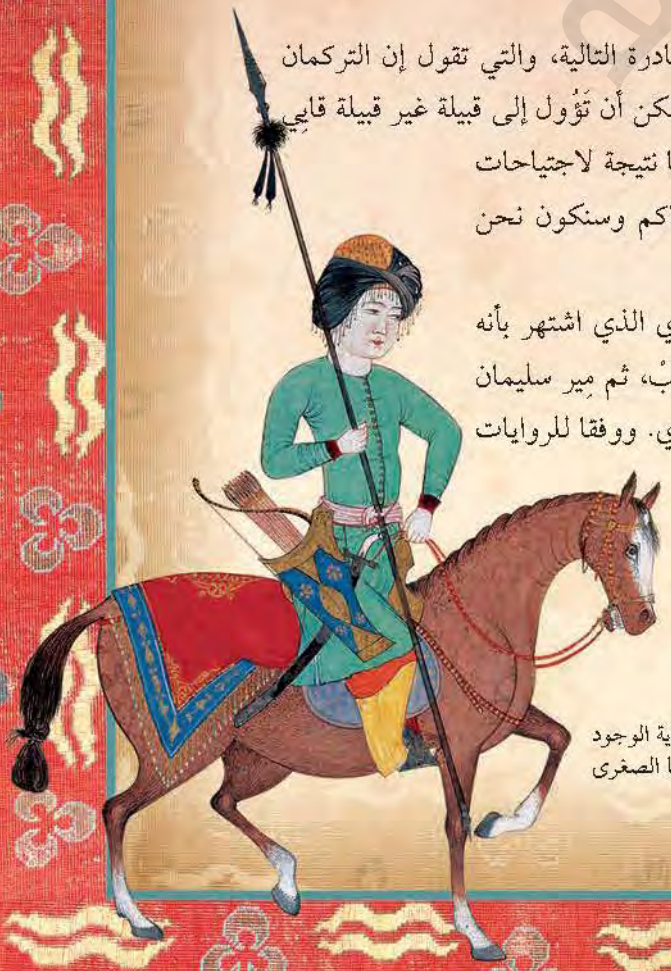

ومن بين الروايات، التي تربطها المصادر بحكم عثمان، تظهر النادرة التالية، والتي تقول إن التركمان الذين تحركوا تجاه الحدود الغربية أعلنوا أن السيادة على المنطقة لا يمكن أن تَؤُول إلى قبيلة غير قبيلة قَايي من الأتراك الأُغُوز بعد ضعف دولة سلاجقة الأناضول التي فَقدت قوتَها نتيجة لاجتياحات المغول المدمرة من الشرق. وقالوا لعثمان غازي: "ستكون أنت الحاكم وسنكون نحن رعاياك وسوف نشارك في الغزوات". فقبل عثمان بك[2] هذا العرض.

ولا يوجد إجماع بين المصادر المعاصرة على نسب عثمان غازي الذي اشتهر بأنه كان وفقا للترتيب التالي: أُوغُوزْ، ثم كُوكَالْبْ، ثم قِزِلْ بُوغا، ثم قَايا آلْبْ، ثم مِير سليمان آلب، ثم شاه ملك، ثم كونْدُوزْ آلب، ثم أَرْطُغْرُلْ غازي، ثم عثمان غازي. ووفقا للروايات التاريخية، كان لأَرْطُغْرُل غازي ثلاثة ورثة هم: كُونْدُوزْ آلب وسارُوباتو وعثمان. وعلى فراش موته أعلن أَرْطُغْرُلْ غازي أنه يرغب في أن يخلفه ابنه الأصغر عثمان ليكون "البك" الجديد، وهو اللقب التركي للقائد الأكبر. فوافق إخوة عثمان الكبار ولم يترددوا في الخدمة تحت حكم

---

[1] مَثَّل انتصار الأتراك السلاجقة على الجيش البيزنطي في موقعة مَالاذْكِيرْت عام ١٠٧١ بداية الوجود التركي في الأناضول بقوة. فقد أقاموا دولة السلاجقة بالأناضول في عام ١٠٧٥ وحكموا آسيا الصغرى بدءًا من القرن الحادي عشر وحتى أوائل القرن الرابع عشر.

[2] "بك" لقب تركي يتخذه حكام الإمارات المستقلة.

أخيهم الأصغر. وخلال سنوات تشكيل نطاق حكم البك العثماني، كان أبرز رفقاء عثمان غازي من الأبطال مثل: تُورْغُوتْ آلْبْ، وآيْكُوت آلب، وسَالْتُوكْ آلْبْ، وحسن آلب، وكُونُوْر آلب، وعبد الرحمن غازي، وآكْجَا كُوجَا. وأخيرا وصل أبناء هؤلاء الغازين وأحفادهم لاحقا إلى المناصب العليا في الإدارة العثمانية والجيش.

تبنى عثمان غازي منهجين أساسيين في فتح بيزنطة، وهما الغزو والاستمالة، أي "تأليف" القلوب تجاه الإسلام. وقد استهدف الغزوُ فتح أراضٍ جديدة، بينما استُخدمت الاستمالة لكسب دعم البلاد التي فتحت حديثا.

ولم تُجبَر الشعوب الأصلية في المناطق التي فُتحت على اعتناق الإسلام، بعكس الافتراضات الخرافية الشائعة. بل إن العثمانيين لم يَعتبروا من أُجبروا على اعتناق الإسلام مسلمين. فقد كانت الطريقة الوحيدة لكسب معتنقين جدد للإسلام، بالنسبة لهم، هي كسب ود سكان المناطق المفتوحة، وزخرفة مدنهم، وتسهيل أنشطتهم التجارية، وتوفير سبل الرخاء لهم، بينما كان يُسمح لهم بممارسة دياناتهم الخاصة. وبهذا الأسلوب كانوا يُظهرون لهم تميز الإسلام، وقد اعتنق كثيرون الإسلام طواعية على هذا النحو.

إن البوسنيين والألبان المسلمين اليوم هم أحفاد هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام بُعَيْد الفتوح العثمانية في البلقان. وفي هذه الفتوح، احترم العثمانيون الشعار المهم الذي يقول: "من يواصل الظلم فعاقبته وخيمة".

لوحة بفن المنمنمات تصوّر عثمان غازي، وعلى يمينه كُونُوزْ آلْبْ، وعلى يساره آقْجَا كُوجَا بَي.

وكان عثمان غازي كثيرا ما يستشير الشيخ أَدَبَالِي (أدب عالي) والفقيه دُورْسُونْ -وهما من كبار العلماء في عصره- في أمور الغزو وشؤون الإدارة، ويطلب مشورتهم فيما يتعلق بتوافق سياساته مع الإسلام. وكان حريصا تمام الحرص في العموم على حكم إمارته بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية.

وربما كان أكبر إنجاز عسكري لعثمان غازي أنه وحّد بنجاح كل جنوده تحت راية واحدة بغض النظر عن خلفياتهم المختلفة. وتعرِّف المصادر البيزنطية عثمان غازي بأنّه القائد الأكثر شهامة بين كل من غزا أراضي بيزنطة. وقد توحد الغازون والآلْبْ (الأبطال) جميعهم، تحت رايةِ عثمان غازي، القائد الأكثر نجاحا بينهم. ولم يتوحد تحت رايته المسلمون فقط، بل اللوردات المسيحيون الكبار في الأراضي المفتوحة، الذين كانوا يُعرَفون بـ"التَّكْفُورْ"، هم أيضا تحولوا إلى رفقاءِ جدد لعثمان وجنوده المحاربين.

ولعب الاعتدال والحوار والتفاهمات دورا عميقا في نجاح قيادته تماما كما فعلت فكرة الغزوات. لكن فكرة الغزوة كانت عاملا مهما في تطور الدولة العثمانية. إلا أن هذا الأسلوب أصبح فيما بعدُ أكثر تعقيدا إلى حد استخدامه لتوليد وحدات عسكرية جديدة مثل قوات الانكشارية[٣] والسباهي.[٤]

وحصّن عثمان غازي القوة المادية لإمارته بفضل القدرة العسكرية والفرص الاقتصادية والدبلوماسية التي اتبعها. كما عزز المؤسسات الدينية في إمارته من خلال كسب دعم دراويش آهِي (أخي)، وهم القادة الروحيون لطوائف التجار والحرفيين المتدينين، بالإضافة إلى القضاة الشرعيين، ومن خلال تقريب الشيخ أَدَبَالي (أدب عالي) باعتباره معلمه الروحي، وهو أحد القادة الدينيين الأكثر قبولا في ذلك الوقت. وكان القضاة مثل الفقيه دُورْسُون، الذي كان يتمتع بفهم عميق للشريعة الإسلامية والمبادئ السنية، لهم دور بارز في تأسيس الإمارة العثمانية على مبادئ الإسلام وإضفاء الطابع المؤسسي عليها. وبعد ذلك خدموا كأئمة في المدن والبلدات والقرى المؤسَّسة حديثا، كما لعبوا دورا ضخما في تثقيف وتنوير العامة. ومن أجل توفير وسائل المحافظة على خدماتهم، منحهم كل من عثمان غازي وابنه أورخان غازي أراضيَ لإقامة مؤسساتهم الدينية. وتقدم سجلات الدولة (أو ما كان يعرف بـ"دفاتر التحرير") التي بقيت حتى اليوم دليلا على أراضي الوقف الكثيرة التي منحها عثمان غازي وابنه أُورْخَان. والواقع أن وزراء أو مستشاري الإمارة كان يتم اختيارهم من بين هؤلاء القضاة الشرعيين.

وخلال سنوات تشكيل دولة العثمانيين هَزم المغولُ (الإلخانيون) دولةَ سلاجقة الأناضول، وأصبحوا القوة المهيمنة في الأناضول (آسيا الصغرى). وأسفرت سيطرة المغول في الأناضول عن عدم رضا شديد. وبالتحالف مع التركمان دعم المماليك[٥] سلسلة من التمردات التي قادها الحكام المحليون التابعون للمغول

---

[٣] الانكشارية تعني حرفيا "القوة الجديدة". وقوات الانكشارية هي سلاح للمشاة النخبة الدائم للسلطان.

[٤] السباهي أو (تِيمَارْلِي سباهي) هو سلاح الفرسان الذي يتكون من فرسان مُنحوا إقطاعيات في الأقاليم تسمى (تيمار).

[٥] جنود من أصل تركي خدموا كجنود "مملوكين" أي في حكم العبيد للعباسيين. ومع الوقت هؤلاء المماليك الأتراك أصبحوا طبقة عسكرية قوية واستولوا على السلطة

في الأناضول ضد الإلخانيين. فأعطى هذا الموقف المشوش فرصة ذهبية لعثمان غازي كي يتقدم نحو بيزنطة من دون وجود تهديد مغولي خطير في الأناضول.

وخلال العقود الأولى كان عثمان غازي منشغلا بشكل أساسي بتوحيد عشائره وتدريبها. وفي معركته الأولى ضد اللوردات المسيحيين المحليين، واجه لوردَ "إينَكُولْ" بمنطقة تسمى "أَرمَني بَلِي" في الطريق بين سُغُوتْ ودُومَانِيك. لكن قوات عثمان غازي خسرت تلك المعركة وسقط ابن أخيه شهيدا.

كانت هذه هي معركة عثمان غازي الأولى ضد اللوردات البيزنطيين. وكي يفتح "إينَكُولْ"، استولى أولا على "كُولاجَا حِصارْ" بالقرب من "إينَكُولْ" عام ١٢٨٥. فأجبر هذا لوردات "إينَكُولْ" و"كَرَجا حصار" على توحيد قواتهم ضد العثمانيين. ونشبت معركة عنيفة بالقرب من "أَكِنْجِي" عام ١٢٨٦. وربح العثمانيون المعركة، لكن "سَارُوبَاتُو سَاوْجي"، شقيق عثمان غازي، استشهد. وبعد عامين فتح عثمان غازي " كَارَاجا حصار" واحتل المنطقة المحيطة بها. وتم الإقرار في خطب الجمعة بسيادته وإعلان استقلال إمارته عام ١٢٩٩. وتحولت " كَارَاجا حصار" في نهاية المطاف إلى مدينة مسلمة حصينة تستضيف المهاجرين من المناطق القريبة بالإضافة إلى الإمارات الأناضولية التركية الأخرى.[٦]

وما لبث عثمان غازي أن انتقل إلى فتح جديد على الجانب الشرقي من نهر سَاقَارْيَا. وقَدم له دعمُ حليفيه المحليين "كُوسَهْ مِيهَالْ" و"سامسا جاويش" مفاتيح بلدات عديدة في المنطقة. ودَفعت فتوحاتُه الحكامَ المسيحيين المحليين إلى الاستسلام.

ومع التوسع الإقليمي السريع لإمارته حان وقت تقاعُد عثمان غازي. فقسم غازي الأراضي المفتوحة حديثا بين عائلته ورفقائه الذين حققوا هذا التوسع، وعهد بالعرش إليهم. وفي عام ١٢٩٩، منح عثمان غازي منطقة "إِينُونُو" لأورخان بك، ومَنَح "حسن ألب" أراضيَ "يار حصار"، ومنح أراضي "إينَكُولْ" لـ"تُورْغُوتْ آلْبْ". وبمرور الوقت، جرى تطبيق أسلوبِ منحِ أراضيَ بعينها للقادة الذين فتحوها في منطقة "الرُومَلِي" باعتباره الأسلوب الرئيسي للفتوحات.

في السنوات الأولى من إمارته، لم يعتمد عثمان غازي على الحرب فقط بل على الدبلوماسية أيضا. حيث قدم الحوار والتحالف الذي أقامه غازي مع ميهال لورد "هَارْمَانْ قَايَا" -الذي سيعرف لاحقا باسم غازي كُوسَهْ مِيهَالْ- حليفا لغازي، أثبت أنه مصدر موثوق به للمعلومات الاستخباراتية عن بيزنطة كما أصبح مقاتلا في صف غازي أيضا. وسيكون ميهال لاحقا من أوائل معتنقي الإسلام، كما سيصبح مقاتلا مخلصا في الدفاع عن الإسلام.

وحكموا، على سبيل المثال، مصر في فترة سلطنة المماليك من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧.

[٦] خلال السنوات الأولى من القرن الرابع عشر، كانت غالبية شبه جزيرة الأناضول تحكمها الإمارات التركية التي تم تأسيسها بعد انهيار دولة السلاجقة الأناضولية (١٠٧٥-١٣١٨) بسبب غزو المغول.

واختار عثمان غازي، الذي أقام في "يني شهر"، مدينة "إزْنِيقْ" ليفتحها بعد ذلك. فحاصر "إزْنِيقْ" بعد سلسلة من الغارات المبدئية. وما أن سمعت بيزنطة عن حصار المدينة حتى قامت بحشد القوات لمهمة إنقاذ. وعلاوة على ذلك بدأ اللوردات البيزنطيون المحليون في بُورْصا و"أُورْخان أَلِي" و"كَسْتَلْ" هجوما على قبيلة قَايِي. وما إن علم عثمان غازي بجهود الإنقاذ الجماعية التي يقوم بها العدو حتى هاجم بكل قواه في معركة "قُويُونْ حِصَار"، ليعلن انتصارا نهائيا في يوم ٢٧ يوليو/تموز عام ١٣٠٢. ولجأ الناجون اليونانيون إلى حصن إزْمِيتْ. ورغم استمرار عثمان غازي في الحصار وانتظاره استسلام المدينة النهائي في صبر، فإنه لم يتمكن من فتح إزْنِيقْ، حيث استطاع أُورْخَان غازي السيطرة عليها عام ١٣٣١.

أعطى الانتصارُ في "قُويُونْ حصار" التقديرَ والشهرةَ لعثمان غازي وقبيلتِه قَايِي، كما جلب مقاتلين آخرين تحت رايته. وأصبحت سيطرة البيزنطيين في جنوب مرمرة مهددة؛ فقد استولى العثمانيون الآن على الضواحي، فأصبحت مدينة بورصا "التفاحة الحمراء"، أو "أرض الميعاد" الجديدة. ووقعت المدينة تحت الحصار بعد الحرب عام ١٣٠٣. وتظهر السجلات البيزنطية أنه كان من الممكن رؤية الأتراك في كل مكان وصولا إلى مضايق القسطنطينية حتى قبل عام ١٣٠٤.

أشرك عثمان غازي أفرادا آخرين من عائلته في حكم إمارته. وكان هذا أمرا استثنائيا؛ حيث لم يكن يطبق هذا الشكل من نظام الحكم حتى الحقب المتأخرة. بل على العكس من هذا، كان العرف اللاحق يفرض هيكلا ملكيا، يحكمه السلطان باعتباره رأس الإدارة المركزية.

صورة قديمة لمقبرة عثمان غازي أُخذت بعد تجديدها على يد السلطان عبد الحميد الثاني.

عثمان وأورخان، الأب والابن، دفنا في مقبرتين أعلى تلة توفين، (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

منظر عام لمدينة بُورْصَا من جهة طُوبْخانه في المدينة، (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

وكرمز للسيادة طبع العثمانيون على أعلامهم ختم قَابِي (على شكل ثلاثة سهام وقوس)، كما صكوه على عملاتهم منذ بداية إقامة دولتهم.

ونصب عثمان غازي ابنه أُورْخان ليكون خليفته الفعلي في سنوات حياته الأخيرة عندما أقعده المرض عن إدارة شؤون الحكم. ويُروى أن عثمان غازي كان يتطلع إلى أن يسمع من أورخان غازي الأنباء السارة بفتح بورصا. وبعد ذلك طلب أن يُبنى قبره هناك. وفي عام ١٣٢٤ توفي بعد ما خدم لمدة سبعة وعشرين عاما كزعيم لقبيلة كايي.

كان عثمان غازي يتمنى أن يحكم ابنه دائما وفقا للشريعة الإسلامية، وأن يحمي رعاياه ويخدمهم، ويطلب المشورة في شؤون الدولة، وأن يظل عادلا، ويحمي شعبه مهما كلفه الأمر.

كان عثمان غازي قائدا يهتم دائما بإمارته ورعاياه. وقد عاش حياة محترمة، وكان دائما ما يسر سرورا عظيما عندما يكون بين شعبه. وقد أعطى اهتماما عظيما بالشورى في أمور الدولة، وكان يطبق القرارات التي تصدر عن الهيئة الاستشارية. ولم يترك عثمان غازي وراءه أكثر من قطعة قماش طولها حوالي ستة أقدام كان يستعملها كعمامة، ودرع لفرسه، وخُرْج لفرسه، وثوب واحد فقط، ومِرَشَّة ملح، وأداة لحمل الملعقة، وحذاء، ومسبحة، وسيف أنيق، ودرع، ورمح، وبعض الخيول، وعدة خراف للذبح من أجل ضيوفه. لقد ضرب عثمان غازي مثالا جيدا لمن سيتولون الحكم من بعده، وكيف يعيش السلطان حياة بسيطة.

obeikandl.com

رسم يبلغ عمره نحو قرن، يصوّر مقبرة أرطغرل غازي، والد عثمان غازي، في سُغوت.